مجلة كلية الآداب بالرباط العدد ٢١-٢٢ ١٩٩٦/١٩٩٧.

# نماذج من مساهمات الغرب الإسلامي في الحروب الصليبية بالشام وما إليه

**محمد المنوني**
كلية الآداب ــ الرباط

من مظاهر التضامن الإسلامي بين جناحي العروبة، مساهمة طوائف من مناطق الغرب الإسلامي في الدفاع عن بيت المقدس وما حواليه، ضدا على الحروب الصليبية أيام صلاح الدين الأيوبي، وقبله على عهد نور الدين الشهيد.

وللتوضيح فإن هذه المناطق المنوه بها، يغلب على النصوص أن تذكرها باسم المغرب، وإنما القصد بذلك إلى جهات من الأندلس أو المغرب الكبير.

ومن الملامح الأولى لهذه المساهمة، توافر عدد الأسرى من المجاهدين المغاربة، وذلك ما يبرزه ابن جبير[1] في هذه القولة :

«ومن جميل صنع الله ــ تعالى ــ لأسرى المغاربة بهذه البلاد الشامية الإفرنجية، أن كل من يُخرِج من ماله وحيه من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها، إنما يعينها في افتكاك المغاربة خاصة، لبعدهم عن بلادهم، وأنهم لا مخلّص لهم سوى ذلك بعد الله عز وجل...».

وعن المجاهدين الطلقاء من الأسرى يشنع المصدر ذاته، على الصليبيين في شأن الضريبة التي فرضوها على المغاربة خاصة لمّا يمرون بهم، ويبرز أن ذلك كان عقابا لهم من المسيحيين، وجزاءا وفاقا على ما حققه أبطال المسلمين، من استماتتهم في تحرير أحد الحصون من سيطرة الإفرنج، وهكذا يقول ابن جبير[2] :

---

(1) «الرحلة» مطبعة السعادة بمصر 1908/1326، ص 290.

(2) ص 283-284.

«... وأكثر المعترضين في هذا المكس المغاربة، ولا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين، وذلك لمقدمة منهم أحفظت الإفرنج عليهم، سببها أن طائفة من أنجادهم غزت مع نور الدين ــ رحمه الله ــ أحد الحصون، فكان لهم في أخذه غنى ظهر واشتهر، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رءوسهم...».

* * *

ويبدو أن أول تدخل مغربي في هذه الحروب الصليبية يصعد إلى عام 543/«1148»، وهو التاريخ الذي استشهد فيه الإمام المغربي يوسف بن دوناس الفندلاوي، دفاعا عن مدينة دمشق لما حاصرها الصليبيون[3]، وللتذكير، فإن فندلاوة من نواحي فاس.

* * *

ومن المجاهدين المغاربة مع صلاح الدين الأيوبي، قائد أحد أساطيله : عبد السلام المغربي، وكان موصوفا بالحَذْق في صناعته وشجاعته، وتوفي غريقا في حصار مدينة صور عام 583/1187[4].

ثم المؤرخ القيرواني عبد العزيز بن شداد، من رجال آخر القرن الهجري السادس، وقد هاجر إلى الشام ومات به، وكان من أمراء الجيش لذا صلاح الدين[5].

* * *

وقد كان للفاتح العربي صلاح الدين، تقدير خاص يعامل به بعضا من نخب المغاربة، ومن نماذجهم المؤرخ إليسع بن عيسى بن حزم الغافقي الجياني، وهو أول من خطب على منابر العبيديين بعد نقل الدعوة إلى العباسيين[6].

---

(3) «**معجم البلدان**» لياقوت، مطبعة السعادة بمصر، 401/6.
ــ ذيل «**تاريخ دمشق**» لأبي يعلى، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ص 298.
ــ كتاب «**الروضتين**» للمقدسي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الجزء الأول، القسم الأول، ص 137–139.

(4) «**تاريخ الكامل**» لابن الأثير، مطبعة ش أحمد الحلبي ومحمد مصطفى، 210/11.

(5) «**رحلة التجاني**»، المطبعة الرسمية، تونس، 1378/1958، ص 14، تعليق، وهو مؤلف «**الجمع والبيان في أخبار المغرب والقيروان**».

(6) «**التكملة**» لابن الأبار، مطبعة روخس ــ مجريط، رقم 2112، وهو مؤلف «**المغرب في محاسن المغرب**»، قال ابن الأبار : «وهو متهم في هذا التأليف».

ثم العالم الأندلسي أبو الحسن بن جميل : علي بن محمد بن علي المعافري المالقي، استوطن الشام وعرف هنالك بزين الدين، حسب ابن عبد الملك الذي يذكر عنه : «ولما افتتح صلاح الدين بيت المقدس، التمس إماما يكون خطيبه وصاحب الصلاة به، فأجمع من حضر هناك من العلماء والأفاضل المشار إليهم، على أنه لا أحق من أبي الحسن هذا بذلك المنصب، فقدمه لذلك»[7].

* * *

ومن المغاربة الذين هنأوا صلاح الدين بفتح بيت المقدس، أبو الفضل عبد المنعم بن عمر بن عبد الله الغساني الجلياني نزيل القاهرة، ومطلع قصيدته :

أبا المظفر أنت المجتبى لِهُدَى
أُخرى الزمان على خُبْر بخِبرته[8]

ويقول في افتتاح قصيدة أخرى :

يا منقذ القدس من أيدي جبابرة
قد أقسموا بذراع الرب تدخله[9]

ثم كان مطلع تهنئة الرحالة ابن جبير :

أطلّت على أفقك الزاهر
سعود من الفلك الدائر

إلى أن يقول :

فتحت المقدَّس من أرضه
فعادت إلى وصفها الطاهر
وجئت إلى قدسه المرتضى
فخلصته من يد الكافر

---

(7) «الذيل والتكملة»، دار الثقافة، بيروت، السفر الخامس، رقم 627، وأصل هذا عند ابن خميس الأندلسي في تكملة «الإكمال والإعلام...» لخاله ابن عساكر المالقي.

(8) كتاب «الروضتين» المقدسي دار الجيل، بيروت : 103/2، وترجمة الشاعر في «الذيل والتكملة»، مصدر سابق، س 5، رقم 128.

(9) كتاب «الروضتين»، مصدر سابق، 151/2.

وأعليت فيه منار الهدى
وأحييت من رسمه الدائر[10]

* * *

وعن أصداء الحروب الصليبية داخل المغرب، نسجل تطلع المغاربة لتحرير بيت المقدس من وقت مبكر، ومن المهتمين بذلك من زمن بعيد عن تاريخ هذا الفتح، الإمام أبو الحكم بن برجان : عبد السلام بن عبد الرحمن بن أبي الرجال محمد اللخمي الأفريقي الإشبيلي، دفينُ مراكش عام 1141/536، وقد لوح في تفسيره عند طالعة سورة الروم، إلى تاريخ فتح بيت المقدس عام 1187/583.

ثم أوضح ما غمض من إشارة ابن برجان، أبو زكرياء : يحيى بن أبي الحجاج اللَّبْلي الأصل، المراكشي النشأة، المتوفى حدود 590هـ أو بعدها بقليل، قال عنه ابن الزبير[11] : «وهو الذي استخرج من تفسير أبي الحكم بن برجان ــ من كلامه على سورة «ألم غلبت الروم» ــ فتح بيت المقدس في الوقت الذي فتح فيه على المسلمين، وحقق وعين ما كان أغمض فيه ابن برجان وأبهم، ووقف عليه المنصور فبقي مرتقبا له ومعتنيا ــ في نفسه ــ به، حتى كان ذلك على حسب ما قاله، فأمر أن يحضر مجلسه ويرتسم في جملة طلبته».

ولنقف ــ قليلا ــ عند الفقرة الأخيرة من كلام ابن الزبير، لنرى مدى اهتمام يعقوب المنصور بهذا الفتح، حتى نظم مستخرج تاريخه بين أهل مجلسه العلمي، فتضف هذه الملاحظة إلى ملف العلاقات بين المنصور الموحدي وصلاح الدين الأيوبي.

ومما يتصل بهذا المساق، الاستبشار الذي عم المسلمين بمنطقة الغرب الإسلامي، ابتهاجا بما تم من فتح بيت المقدس، وذلك ما يجلّيه ابن عبد الملك[12] وهو يترجم للرحالة ابن جبير :

«ولما شاع الخبر المبهج المسلمين جميعا حينئذ بفتح بيت المقدس... كان ذلك

---

(10) **المصدر نفسه** : 2/105-106.

(11) «**صلة الصلة**»، الطبعة الاقتصادية، الرباط، رقم 370.

(12) «**الذيل والتكملة**»، مصدر سابق، س 5/605-606.

من أقوى الأسباب التي بعثته (ابن جبير) على الرحلة الثانية... قال : وقضى الله برحمته لي بالجمع بين زيارة الخليل عليه السلام، وزيارة المصطفى ﷺ، وزيارة المساجد الثلاثة، في عام واحد متوجها، وفي شهر واحد منصرفا».

° ° °

وإلى هنا نذيل بفقرة لمحيي الدين ابن العربي الحاتمي المرسي الأصل، وفيها يبرز رؤيته لبيت المقدس قبل تحريره، فيدعو إلى مقاطعة زيارته مادام يرزح تحت الحكم الصليبي، وبعد مقدمة مطولة يخلص إلى هذا النداء :

«... لهذا حجّرنا في هذا الزمان على الناس زيارة بيت المقدس والإقامة فيه، لكونه بيد الكفار، فالولاية لهم والتحكم في المسلمين، والمسلمون معهم على أسوإ حال، نعوذ بالله من تحكم الأهواء، فالزائرون ــ اليوم ــ البيت المقدّس والمقيمون فيه هن المسلمين، هم الذين قال الله فيهم : ﴿ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾»[13].

(13) الباب الأخير من «الفتوحات المكية»، المنشور على حدة بالمطبعة الميرية بمكة المكرمة، ص 22.